سينما

فلسطين ومصر في «أسبوعا المخرجين والمخرجات»

بحث عن خلاص وحرية في عالمٍ أرحب

فيلمان فلسطيني ومصري جديدان يُشاركان في تظاهرة «أسبوعا المخرجين والمخرجات» التي تُقام في الدورة المقبلة لمهرجان «كانّ» السينمائي

نديم جرجوره

تشهد الدورة الـ77 (14 . 25 مايو/أيار 2024) لمهرجان «كانّ» السينمائي تنظيم النسخة الـ56 لتظاهرة «نصف شهر المخرجين»، التي يؤسّسها «اتحاد السينمائيين الفرنسيين» عام 1969. الاتحاد نفسه ارتأى تغيير اسمها إلى «أسبوعا المخرجين والمخرجات»، تماشياً مع حالة متفشّية في مهرجانات ونشاطات سينمائية مختلفة، تتمثّل في إيجاد توازن جندري بين الرجال والنساء في المسابقات والبرامج ولجان التحكيم، وإنْ يختلّ التوازن أحياناً لصالح الرجال. هذا يطرح سؤالاً، يتكرّر بين حين وآخر: أيكون التوازن على حساب القيم الجمالية والدرامية والفنية والتقنية للإنتاج السينمائي؟ إدارات مهرجانات عدّة تُدافع عن اختياراتها، بالقول إن البحث منصبٌّ أساساً على تلك القيم، أكثر من التوازن. وهذا، إنْ ينطبق في «كيفية» اختيار الأفلام (والكيفية هذه تحتاج دائماً إلى نقاشٍ نقديّ، فالاختيارات غير ملتزمةٍ القيم تلك، في كلّ دورة لكل مهرجان)، غير محسوم في اختيار أعضاء لجان التحكيم.

واضحٌ أنّ المسألة لن تُحسم جذرياً ونهائياً، رغم أنّ اختياراتٍ متفرّقة (أفلام ولجان تحكيم) تستند إلى قيم تختصّ بالصناعة، وإلى تجارب عاملينَ وعاملات في تلك الصناعة، وإلى خبراتهم واشتغالاتهم وسيرهم المهنيّة الباهرة. أمّا تغيير اسم تظاهرة تُقام في مهرجان «كانّ»، يحتاج (المهرجان نفسه) إلى تغييرات في آلية اشتغاله، فغير مؤثّرة في تحقيق توازنٍ فعلي وعميق في الصناعة السينمائية، إذْ لا تزال النساء تتقاضى أجوراً أقلّ من تلك التي يتقاضاها الرجال، وهذا مثلٌ واحد غير حاجب أمثلة أخرى. تغيير كهذا غير موجودٍ في تظاهرة «أسبوع النقّاد» مثلاً، المؤسَّسة عام 1962 بجهد «النقابة الفرنسية للنقد السينمائي» (المفردة الفرنسية Critique تحتمل ترجمتها إلى اللغة العربية مفردتين: نقد ونقّاد).

كما تشهد النسخة الـ56 «جائزة الجمهور»، لأول مرّة في تاريخها، الحاملة اسم المخرجة البلجيكية الراحلة شانتال أكرمان (1950 . 2015)، والتي تبلغ قيمتها المالية ثمانية آلاف دولار أميركي. بهذه المناسبة، يُعرض لأكرمان «قصص أميركا: طعام، عائلة وفلسفة» (1988). أمّا الافتتاح، فمعقود على الفيلم الفرنسي Ma Vie Ma Gueule لصوفي فيليار، المتوفاة في 31 يوليو/تموز 2023 (مواليد 20 نوفمبر/تشرين الثاني 1964)، بعد وقتٍ قليل على إنهاء تصويره، موصيةً ولديها أغات وآدم بونيتزر إتمامه كلّياً، بمساعدة عاملين وعاملات معها عليه: أزمة منتصف عمر امرأة في ثلاثة فصول: كوميديا، مأساة، وعيد الغطاس. «تترك فيليار صورة ذاتية رائعة وحميمية، تمنحها الممثلة أنياس جاوي جسداً وروحاً»، كما في «كاتالوغ» التظاهرة. إليه، يُعرض 21 فيلماً روائياً طويلاً، و9 أفلام قصيرة. في الختام، يُعرض فيلم فرنسي آخَر، بعنوان «أسلحة بلاستيكية» لجان . كريستوف موريسّ (1975): كلّ تشابه مع قاتل مشتبه به ليس صدفة. رجل يقتل عائلته كلّها، ويختفي في البرية. مستوحى من إحدى أبرز القصص الإخبارية الفرنسية في الأعوام الأخيرة، بنَفسٍ مسرحي يمزج الضحك بالقسوة. هناك محلّلون هواة، ومشهورون في وسائل التواصل الاجتماعي، وكاره للنساء، وغيرهم وغيرهنّ: «تقليدٌ ما للكوميديا الفرنسية، مُعزّز بروح دعابة مروّعة» (الكاتالوغ).

> مخيم عين الحلوة وعالم فانتازي يبحث ناسه عن أمان مطلوب

مهدي فليفل و«إلى أرض مجهولة» في «كانّ» (مات كاز/Getty)

في المسابقة نفسها (الأفلام الطويلة)، أول مشاركة فلسطينية، متمثّلة بـ«إلى أرض مجهولة» (بمشاركة إنتاجية من «ميتافورا» القطرية) لمهدي فليفل: شابان بينهما صلة قرابة قريبة يفرّان من مخيم فلسطيني (عين الحلوة) في لبنان، ويعلقانِ في أثينا، التي يدخلانها خلسةً، بحثاً عن طريقة توصلهما إلى ألمانيا. إنّهما في دوّامة لا يتمكّنان من السيطرة عليها. تغذّيه «سينما نيويورك»، خاصة «منتصف ليل راعي البقر» (1969) لجون سلاسينجر: «فيلم إثارة عصبيّ ومأسوي، لكنّه أيضاً يكشف الظروف المعيشية للمهاجرين، التي لا يعرفها أحدٌ»، سارداً «الحقائق من دون مبالغة فيها أو تخفيف لها» (الكاتالوغ).

إليه، هناك فيلم عربي آخر، بعنوان «شرق 12» للمصرية هالة القوصي: كوميديا سوداء في إطار فانتازيّ ساخر عن عالمٍ مُغلَق خارج الزمن، يتمرّد فيه الموسيقار الشابّ عبدو (عمر رزيق)، على شوقي البهلوان (أحمد كمال) الذي يُدير المكان بخليطٍ من العبث والعنف، والحكّاءة جلالة (منحة البطراوي)، التي تخفّف عن الناس بسردها حكايات خيالية عن البحر الذي لا يعرفه أحد. يُخطط عبدو مع نُنُة (فايزة شامة) لكسر قبضة شوقي، ونيل الحرية في عالم أرحب: «في أرض صناعية قاحلة، تُروى حكاية شعبية تمتدّ من «ألف ليلة وليلة» إلى «أوبو روي». يحاول شباب رائعون النجاة من استبداد طاغية، يشتري فجأة تذاكر اليانصيب وكتل السكر» (الكاتالوغ). الفيلم الروائي الثاني للقوصي موصوف بأنّه «باروكي ومفرط، يبرز في السينما الأفريقية والعربية، ويستحضر روح السينما الجديدة في ستينيات القرن الـ20 وسبعينياته».

الرقابة على السينما في المغرب

من يريد العودة إلى زمن الوصاية؟

سعيد المزواري

«لا شيء فاضحٌ في ما نعبّر عنه. الفاحش كامنٌ في ما نخفيه فقط»
ناغيسا ميشيما

شعورٌ بالامتعاض والخيبة، لا يمتّ إلى بهجة السينما بأيّ صلة، ينتاب المرء في ظلمة القاعة، حين يدرك أنّ مقصّ الرقابة تلاعب بما يُشاهده، مُضيّعاً عليه اكتشاف الفيلم في الشكل الذي ارتضاه مخرجه. بأيّ حقّ يُمنح أشخاصٌ . يشكّلون «لجنة رقابة» في «المركز السينمائي المغربي»، لا تُعرف خلفيّاتهم ونواياهم . سلطةَ الوسيط بين ذاتيّتي المبدع والمتلقّي؟ أيّ احترام يُكنّونه لصنّاع الأفلام، وللجهود المضنية التي يبذلها فنّيون وتقنيون، ثم أعضاء فريق تنظيم تظاهرة دولية بعراقة «مهرجان تطوان لسينما البحر الأبيض المتوسط» (عام 2025، سيكون هناك احتفاءٌ مزدوج به، بمناسبة دورته الـ30، ومرور 40 عاماً على تأسيسه)، حين يبعثون إليهم وثيقة غريبة . لا تنتمي إلى روح العصر، ولا تستجيب لمقاصد الفن، لكنّ إصدارها ملزمٌ إدارياً . تنصّ بتفاصيل دقيقة على «ضرورة» جزّ الأفلام ضدّ كلّ نواميس الممارسة السينمائية في البلدان التي تكفل قدراً محترماً من حرية التعبير، والمغرب كان من بينها، أقلّه في ماضٍ قريب.

أشياء لا تحدث عادةً إلّا في المجتمعات الموبوءة بالسلطوية الفجّة. لذا، يُستبعد أنْ يكون الأمر تعبيراً عن توجّه جديد للدولة المغربية، بل يُرجّح ارتباطه بمسؤول أو موظفٍ سام، أخذته حماسة مفرطة، يسمّيها الفرنسيون Excès de zèle، فبالغ في الحذر، درءاً لمتاعب توجد في مخيّلته فقط. الساحة السينمائية المغربية شهدت، في العقدين الأخيرين، قضايا عدّة في الرقابة المجتمعية على أفلام، بالاحتجاج عبر مواقع التواصل الاجتماعي، أو بالضغط على مُستغلّي القاعات لسحبها من البرنامج، كالحاصل مع «فيلم» (2011) لمحمد أشاور. كما قاومت السلطات عرض «موشومة» (2011) للراحل لحسن زينون من دون قصّ أي لقطة منه، رغم الضجّة التي أثارتها بعض مَشاهده، في عهد الراحل نور الدين الصايل رئيساً لـ«المركز السينمائي». هناك أيضاً «الزين لي فيك» لنبيل عيوش، الذي لا يزال ممنوعاً من العرض في المغرب، بعد سيل هلوسات صادرة عن أشخاص لم يشاهدوه، بمجرّد تسرّب مقاطع منه تزامناً مع عرضه في «نصف شهر المخرجين»، في الدورة الـ68 (13 . 24 مايو/أيار 2015) لمهرجان «كانّ». أفلامٌ أجنبية تعرّضت بدورها لمقصّ الرقابة، قبل عرضها في الصالات التجارية: «سِفْر الخروج: الآلهة والملوك» (2014) لريدلي سكوت، و«بابل» (2022) لداميان شازل، الذي تعرّض لمجزرة من عشر قطعات. لكنّ المهرجانات كانت دائماً واحات حرية، تنشدُ أفقاً نصبو إليه جميعاً: عرض الأفلام باحترامٍ تامٍ لحرمتها الفنية، بينما تُكيّف ظروف منعها على الجمهور القاصر، إنْ استدعى الأمر، وفق نظام تصنيف متدرّج وواضح ومُبرَّر. بغض النظر عن غموض المعايير المتّبعة في الرقابة على الأفلام . المعروضة في القاعات المغربية في السنوات الأخيرة، لأنّ منطق حجب مَشاهد على مُشاهدين «بالغين ومُلقّحين»، لا يمكن فهمه أو تفهّمه بأيّ حال . يرتبط قرار القطع غالباً بجسد المرأة ومَشاهد الجنس، كما في حالة أفلامٍ عدّة في المسابقة الرسمية للدورة الـ29 (27 إبريل/ نيسان . 4 مايو/ أيار 2024) لـ«مهرجان تطوان لسينما البحر الأبيض المتوسط»، تعرّضت للرقابة. يبدو أنّ عرّابي هذه القرارات لا يستوعبون أنّهم، حين يختلسون من المتفرّج مشهداً من صلب الفيلم، يُخلّون بالحركة نفسها، بالحبكة والإيقاع، وبجوّ الاندماج الذي ترتكز عليه كلّ فرجة سينمائية.

> أشخاص لا تُعرف خلفياتهم ونواياهم يتسلّطون على السينما

مثلاً، حين حرموا المهرجانيِّين من متابعة لقطة حميمة بين ماريا ورجل التقته في حفلةٍ ليلية، في «قرون» (2023) للإسباني خايون كمبوردا، عصفوا بتوازن خلّاق بين آهات المتعة في هذا المشهد، وصرخات الألم المنبعثة من حنجرة امرأةٍ، وافقت ماريا على توليد جنينها في المشهد الافتتاحي. من دون هذا المشهد، ينتفي استيعاب طرح الفيلم: حقّ المرأة في الحرية والمتعة، بداية سبعينيات القرن الـ20، في إسبانيا المتّسمة بالثقافة الفرانكوية.

إثر عرض «قرون»، وجد المهرجانيّون أنفسهم يخوضون في مسألة الرقابة ومتاهاتها العبثية، المضحكة والمبكية في آن، بدل مناقشة جماليات الفيلم البديع وطرحه. ثمّ خطورة وصاية أخلاقويّة تستنفد طاقة الدفاع عن أشياء يُظنّ أنّها بديهيات مكتسبة، وبدل السعي إلى حوار يستشفّ طرح الأفلام ويناقش تفاصيلها. إضافة إلى أنّها تهدّد بمفاقمة سلطة الرقابة الذاتية، المتفشية أصلاً إلى حدّ كبير في الوسط المغربي. طرح ضيوف المهرجان سؤالاً على السينمائيين المغاربة: «هل من المعتاد حصول أشياء كهذه في تطوان؟». تظلّ نظرة الشك بادية في عيونهم، حتى عندما ينفي المغاربة هذا. شيءٌ طبيعي بحكم سمعة الاستثناء، والمنسوب العالي لحرية التعبير السينمائي نسبياً، التي (كانْ؟) يتمتّع بها المغرب، مقارنة ببلدان المنطقة. من يمارسون الرقابة على الأفلام يهدمون ما استغرق بناؤه عقوداً، ويسيئون إلى الصورة السينمائية للمغرب أمام ضيوفه، أكثر مما يتمنّاه ألدّ «أعدائه».

في كلمة مقتضبة ألقاها في حفلة الختام، شكر إيليا سليمان، رئيس لجنة التحكيم، منظّمي المهرجان، ثم أسرّ أنّه «لا يرفض دعوة يتلقّاها من المغرب». لا شيء يضمن في المستقبل، إنْ لم يُقطع مع منطق الرقابة، أنّ يفكّر سليمان وغيره من كبار الفنّ السابع مليّاً، ولو بغير وعي، قبل العودة إلى بلدٍ تُقصُّ في مهرجاناته مقاطع من أفلامٍ سينمائية. المسألة أهمّ وأخطر من لقطةٍ عري عابرة، أو مشهد حبّ بين بطلي فيلم، يُحجبان في قاعة مظلمة، وفي مهرجان سينمائي. كيف ينفرج صدر من يضيق ذرعاً برؤية جسد أنثوي، ليتقبّل رأياً منتقداً، أو طرحاً مخالفاً؟ نحن هنا بصدد الدفاع عن أشياء تتعلّق بالحرية ونموذج العيش المستقبلي، الذي نرتضيه لأنفسنا. الرهان على الحقّ في الخلق والتعبير، من دون وصاية أو حجر من أي جهة كانت.

«الزين اللي فيك» للمغربي نبيل عيوش: رقابة قبل المُشاهدة (الملف الصحافي)

أفلام جديدة

■ Christmas Eve In Miller's Point لتايلور تاورْمينا، تمثيل ماتيلدا فليمينغ (Getty) ومايكل سيرا وفرانشيسكا سكورسيزي: سهرة رأس السنة الجديدة تجمع أفراد عائلة إيطالية . أميركية منتمية إلى الطبقة الوسطى. مع حلول الليل وتصاعد التوتّرات، تهرب إحدى الفتيات المراهقات مع صديقتها إلى الضواحي الشتوية. هناك أيضاً ضابط شرطة لا يُحتمل، كأنّه آتٍ من أجواء «توين بيكس» لديفيد لينش.

■ Eat The Night لكارولين بوغْجي، تمثيل ليلا غينيو (Getty) وتيو شولبي وإرفين كيبُويا: نشأ شقيقان مُراهقان يُدعيان بابلو وأبولين معاً، وهما يلعبان Darknoon، لعبة فيديو خيالية عبر الإنترنت. يعلن Darknoon عن الاختفاء الوشيك لعالمه، وخروجه من الشبكة. تأخذ علاقة بابلو مع شاب يُدعى نايت مساحة أكبر. مع الإثارة والرومانسية والأجساد الرقمية والنارية، يتناول الفيلم حِداد الطفولة وحبّ اللعب.

■ Good One لإنديا دونالدسون (Getty)، تمثيل ليلي كولّياس وجايمس لو غرو وإيريك ياتس: في هذا الفيلم الطويل الأول لمخرجته، توافق شابة (17 عاماً) على التنزّه في الغابة مع والدها، وصديق قديم لها. لا اكتشافات كبيرة، ولا صدمات قاسية. لكنّ الرجال يزدادون ثقلاً، أكثر فأكثر. الشابة، التي تُعتبر حتى تلك اللحظة «الطفلة الطيبة» التي لا تعاني مشاكل، لا تستطيع التأقلم.

■ La Prisonnière De Bordeaux لباتريسيا مازو، تمثيل إيزابل أوبير وحفظية حرزي (WireImage): تلتقي امرأتان في غرفة الزيارات في أحد السجون، فكلّ واحدة منهما تزور «رجلها». إحداهما ثرية من الطبقة الوسطى، والأخرى عليها أنْ تعمل لإطعام طفليها. الأولى تعرض على الثانية البقاء في منزلها الكبير، الأقرب إلى السجن. أتكون صداقة، أم حباً، أم ميثاقاً؟ يتتبع الفيلم الترادف غير المتوقع، وحلم تحرّر المرأة، والعودة إلى خليج يفصل بين الناس. وهذا كلّه من دون مانوية ولا فتور.

■ Sister Midnight لكاران كانداري، تمثيل راديكا آبت (Getty) وآشُك باڤْهاك وسْميتا تامبي: زواج مُدبّر في مومباي بين رجل مترهّل وضعيف، وامرأة، بمجرد وصولها إلى بيت الزوجية، تُظهر كراهية للجميع. عالقةٌ في جحيم الزوجين، تتحوّل أوما إلى شخصية مزعجة من دون أي هاجس، ما يطلق العنان لدوافعها الشرسة.